إعادة كتابة التاريخ من الأسفل

سميرة بن جاب الله د. يمينة سلايمية
جامعة العربي التبسي – تبسة- جامعة باجي مختار عنابة

الملخص:

تروم هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على قضية إعادة كتابة التاريخ من منظور الهامش في الكتابة الروائية، من حيث هي قضـــية مركزية في كتابات ما بعد الكولونيالية، التي تحاول إعادة النظر في تراتبية المركز والهامش بغية تقويض فكرة أفضـــلية الغرب التي قامت عليها الحضـــارة الغربية، ومن ثمة تنامت النظرة الصـراعية والنزعة الصـدامية التي ولدت الممارسـات الوحشـية والدموية، وبررت ثقافة العنف التي تشـبع بها الإنسان الغربي.

الكلمات المفتاحية: كتابة، التاريخ، منظور ، الهامش، الرواية.

Abstract:

This research paper intends to shed light on the issue of rewriting history from the perspective of margin in narrative writing, as it is a central issue in post-colonial writings, which attempts to review the hierarchy of the center and the margin in order to undermine the idea of the preference of the West upon which Western civilization was based Then, the growing view of conflict and the confrontational tendency that generated brutal and bloody practices, and justified the culture of violence that satiated the Western person.

***Key words**:* writing, history, perspective, margin, novel

مقدمة :

التاريخ ليس مجرد أحداث مرت وانقضت بل هو مجال معقد وخطـــير لأنه مكتنز بالتأويلات والقراءات وحتى الكتـــابات، ذلك أن التـــاريخ يكتبه الأقوى. وفي محـــاولة قد تكون يائسة، وقد تكون نابعة من قوة فاعلة يعيد الهامش كتابة التاريخ من منظوره ردا لاعتبار الذات، وثأرا من تراتبية المركز والهامش.

تنخرط فكرة إعادة كتابة التاريخ من منظور الهامش _إعادة كتابة التاريخ من الأسفل _ضمن ما يعرف ب ما بعد الكولونيالية، وهي نظرية تطرح العديد من المحاور وتحاور العديد من الإشـــكاليات تنحو كلها منحى واحد هو تفكيك الخطاب الكولونيالي وإعادة النظر في تاريخ الظاهرة الكولونيالية. تطرح هذه النظرية العديد من القضـــايا الشـــائكة التي تســـتدعي البحث والتقصـــي والتفكيك ومن ثمة التقويض مثل: جدلية الأنا والآخر وذلك الصـــراع الأزلي بينهما، ثنائية الشـــرق والغرب، الإســـتشـــراق ودوره في تقوية المركزية الغربية وتزكيتها، الصراع الفكري والثقافي، إشكالية التمركز العقلي..... وغيرها من القضايا.

1. مابعد الكولونيالية: قراءة في المفهوم والمصطلح

إن فهم الظاهرة الكولونيالية ومن ورائها الخطاب ما بعد الكولونيالي مرهون بفهم المركزية الغربية، والبحث في تكوّنها والحفر في بداياتها ومراحل تشـــكّلها ومن ثمة يمكن العمل على تفكيك بُنَاها وقراءة مفاهيمها ومعرفة آلياتها. أما عن بداياتها فيصـعب الإمساك بها لأن لها امتدادات في الفكر والتاريخ الغربيين، لكن ما هو أكيد أنها قامت على بعض الأفكار التي دعا إليها مفكرون وفلاســـفة غربيون، حيث يؤكد "هيغل" على أفضـــلية

الحضارة الأوروبية ومركزيتها، ذلك أن "الحضارات تتعاقب الواحدة بعد الأخرى منذ القدم إلى أن زالت جميعها ولم يبق منها سوى حضارة واحدة هي الحضارة الأوروبية التي تمثل خلاص العالم بأسره" [1].

لقد أصبح مصطلح "ما بعد الكولونيالية" أكثر تداولا في المجالس والندوات الأكاديمية والفكرية إذ يشير إلى موضوع مهم من موضوعات الدراسات الثقافية التي أفرزتها تيارات ما بعد الحداثة، البارز حضورها والغامضة دلالتها ومفاهيمها، والذي زاد المصطلح إشكالية هو المكون اللغوي "ما بعد" الذي يشي للوهلة الأولى بمعنى "تالية" و"لاحقة" ليلتبس في ذهن المتلقي مع مفهوم الاستقلال لأن ما بعد الاستعمار يعني الاستقلال في معناه المعجمي، لكن نظرة خاطفة لبعض المفاهيم التي ساقها المفكرون لهذا المصطلح تساعد على زوال ذلك الغموض وكشف ماوراء المعنى المضلل، فدوغلاس روبنسون في كتابه "الترجمة و الإمبراطورية" قد ميّز ثلاثة مفاهيم هي:

- "دراسة مستعمرات أوروبا السابقة منذ استقلالها أي كيف استجابت لإرث الكولونيالية الثقافي أو تكيفت معه أو قاومته أو تغلبت عليه خلال الاستقلال، وهنا تشير الصفة "ما بعد الكولونيالية" إلى ثقافات ما بعد نهاية الكولونيالية، والفترة التاريخية التي تغطيها تقريبا النصف الثاني من القرن العشرين.

- دراسة مستعمرات أوروبا منذ استعمارها، أي الكيفية التي استجابت بها لإرث الكولونيالية الثقافي أو تكيفت معه أو قاومته أو تغلبت عليه خلال الاستقلال، وهنا تشير الصفة "ما بعد الكولونيالية" إلى ثقافات ما بعد بداية الكولونيالية، والفترة التاريخية التي تغطيها تقريبا الفترة الحديثة، بدءًا من القرن السادس عشر.

- دراسة جميع الثقافات/المجتمعات/ البلدان/ الأمم من حيث علاقات القوة التي تربطها بنواها من الثقافات/ المجتمعات/ البلدان/ الأمم، أي الكيفية التي أخضعت بها الثقافات الفاتحة لذلك القسر، أو تكيفت معه أو قاومته، أو تغلبت عليه، وهنا تشير الصفة "ما بعد الكولونيالية" إلى نظرتنا في أواخر القرن العشرين إلى علاقات القوة السياسية والثقافية، أما الفترة التاريخية التي تغطيها فهي التاريخ كله"[2].

تُعد النظرية ما بعد الكولونيالية إحدى أهم الحقول المعرفية الجديدة إلى حد ما والجديرة بالبحث والتقصي، وهي جزء من مجال معرفي عام هو حقل الدراسات الثقافية المتعددة الفروع التي تعتمد على الأنثروبولوجيا، علم الاجتماع، علم النفس، الفلسفة، التاريخ في عملية دراستها وتحليلها لمختلف الممارسات الثقافية. كما يشير هذا المصطلح – "ما بعد الكولونيالية" – إلى ذلك التوجه الفكري الذي ناقش الخطاب الاستعماري في مختلف تمظهراته وأعاد النظر في مبادئه وأسسه ومرتكزات كما عمل على البحث في ممارساته.

- تعتمد دراسات ما بعد الكولونيالية على تنوّعها وتشعّبها على تقويض كل المفاهيم الداعية إلى المركز و الوحدة والانغلاق كما ترمي إلى تجاوز ثنائية المركز والهامش وإعادة الاعتبار للهامش الذي فُرِضَ عليه التهميش. ويمكن تحديد اهتمامات هذا الحقل المعرفي في النقاط الآتية:

- تقويض الرؤية الاستبدادية الغربية.

- تفكيك الظاهرة الاستعمارية من خلال تتبع جذورها التاريخية.

- مناقشة القراءات الخاطئة والرؤية التاريخية المزيفة التي تشكل جزءًا من المشروع الامبريالي.

- إبراز التباينات المختلفة في لغات الشعوب وثقافاتها وسياساتها وتواريخها قصد إعادة الاعتبار للهامش.

- تحرير الشعوب من الهيمنة بمختلف أشكالها السياسية، الاجتماعية والثقافية.
- العناية بالإنتاجات والنصوص والقيم والمفاهيم التي أسهمت في ظهورها مرحلة الاستعمار سواء كانت مؤيدة أو معارضة.
- رصد العلاقة القائمة بين الثقافة والسلطة.
- رصد العلاقة بين الأنا والآخر.

تطرح النظرية ما بعد الكولونيالية العديد من المحاور وتحاور العديد من الإشكالات تنحو كلها منحى واحدا هو تفكيك الخطاب الكولونيالي وإعادة النظر في تاريخ الظاهرة الكولونيالية بُغية إعادة الاعتبار لمستعمرات قُدّرَ لها أنّ ترزح طويلا تحت نير الاحتلال الغربي، وتذوق ويلات الحروب ووحشية المستعمر، وهمجيته من سلب وقتل وتنكيل ليدفعوا بذلك ثمن الدعاوى الكاذبة والشعارات الزائفة التي تدعي التنوير، وبأنها تحمل رسالة إلهية هي الرقي بهذه الشعوب المتخلفة الحيوانية إلى مصاف البشرية لأن "الكسل والعدوان والعنف والجشع والاتصال الجنسي غير الشرعي، والحيوانية والبدائية، والبراءة واللاعقلانية يعزوها المستعمرون (غالبا بصورة متناقضة وغير متسقة) الانجليز والفرنسيون والألمان والأسبان والبرتغاليون إلى الأتراك والأفارقة والأمريكيين الأصليين واليهود والهنود والايرلنديين وشعوب أخرى وتجدر الملاحظة أيضا أن بعض تلك الأوصاف استعملت لوصف أفراد الطبقة العاملة والنساء داخل أوروبا"[3]. إن هذه السمات التي ينسبها الغرب لشعوب العالم الثالث لم تكن مجرد كلام عام، بل إنه حاول أن يجعل منها خصائص بيولوجية تحددها نظريات علمية مهتمة بالأعراق وهو ما يناقض الطرح القائل بفكرة أن الاستعمار كان بهدف التمدين والتحضير لأن الخصائص الفطرية لا تُغيّرها العوامل الاجتماعية. "وتتضمن الروايات الأوروبية عن الشرق تركيزا متعمدًا على تلك السمات التي تجعل هذا الشرق متخلفا عن الغرب وتنفيه إلى عالم (الآخر) وتخفضه إلى مرتبة (الغير) الذي (لا صلاح له)، وكانت في هذه الروايات الأوروبية التي تصف ذلك الآخر مقولتان ملفتتان للنظر الأولى هي الإلحاح على الادعاء بأن الشرق هو "مكان الفسق والملذات" والثانية هي أن هذا الشرق هو عالم العنف المتأصل" [4].

تطرح نظرية ما بعد الكولونيالية مجموعة من القضايا الشائكة التي تستدعي البحث والتقصي والتفكيك ومن ثمة التقويض مثل: جدلية الأنا والآخر وذلك الصراع الأزلي بينهما، ثنائية الشرق والغرب، الاستشراق ودوره في تأكيد المركزية الغربية وتزكيتها، الصراع الفكري والثقافي، إشكالية التمركز العقلي، كما تعمل على فضح الإيديولوجيات الغربية وتقويض مقولاتها المركزية بُغية تعرية المركزية الغربية ونسف أسسها الظاهرة منها والخفية، وإن أكثر "اهتمام ذي صلة في فكر ما بعد الاستعمار هو تهميش الثقافة الغربية وقيمها للثقافات المختلفة الأخرى. ويتضح من منظور عالم ما بعد الاستعمار أن أعمال الفكر الكبرى في غرب أوروبا والثقافة الأمريكية قد هيمنت على الفلسفة والنظرية النقدية وكذلك على أعمال الأدب في جزء واسع من أنحاء العالم، ولاسيما تلك المناطق التي كانت سابقا تحت الحكم الاستعماري. إن مفهوم دريدا عن الميثولوجيا البيضاء الذي حاول أن يفرض نفسه على العالم بأسره، قد قدم الدعم لهجوم ما بعد الاستعمار

على هيمنة الإيديولوجيات الغربية، وعن رفض ما بعد الحداثة للسـرديات الكبرى وأنماط الفكر الغربي التي أصبحت عالمية كان أيضا مؤثرًا جدًا" [5].

ما بعد الكولونيالية هي حركة في النقد الاجتماعي والثقافي والأدبي ترد على الامبريالية الأوروبية ضد شعوب العالم الثالث من خلال تقديم خطاب مضاد للمقولات التي يروج لها الغرب "الآخر"، إنها نقد منبثق من ركائز الاستعمار وجوهره، إنها عمل دائم ودؤوب لبعض المقولات التي تُروّج لفكرة أفضلية الشعوب الأوروبية على باقي شعوب العالم بوصفها حاملة لواء الإنسانية حسب ادعائها على مر التاريخ وامتلاكها حق ريادة العالم والسيطرة عليه كونها أكثر الشعوب تقدمًا وتحضرًا.

2. الرواية والتاريخ بين الإتلاف والاختلاف

تبدو العلاقة بين الرواية والتاريخ مستبعدة لما بينهما من فرق شاسع، كون الرواية تقوم على التخييل بالدرجة الأولى، بينما يقوم التاريخ على الوقائع والأحداث الحقيقية والموضوعية. لكن الواقع الفني يؤكد إمكانية الجمع بينهما فيما يعرف بالرواية التاريخية، والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا الموقف هو لماذا كتابة التاريخ روائيا؟ هل هو من باب الإبداع الفكري والفني؟ أم أن هناك هدفا أبعد وأعمق من ذلك؟ هل الرواية تعيد كتابة التاريخ فحسب أم أنها تقوم بمساءلته فنيًا؟.

تعيد العلاقة بين الرواية والتاريخ النظر في فكرة قداسة التاريخ، التي تنفي كل إمكانية لإعادة النظر، وإعمال الفكر في الوقائع التي يمتد تأثير نتائجها على الحاضر لتصبح شكلا من أشكال الإدانة له. فالرواية تستلهم التاريخ لأن بناءها وتركيبها يتيح لها مجاراة التاريخ دون الخضوع للجمود أو السقوط في مجرد تكرار أحداث ماضية واستنساخها، بل إن الفترة العصيبة التي يعيشها المجتمع العربي جعلت الكتابة الروائية تنخرط في الهم التاريخي، في محاولة لاكتشاف عناصر الضعف التي تقف حاجزا يحول دون ازدهار العالم العربي، وعليه فإن الالتزام والتآزر بين الرواية والتاريخ أتاح فرصا أكبر لتسليط الضوء على الواقع المرير الذي تتخبط فيه المجتمعات العربية.

إن الاستحضار الواعي للحدث التاريخي ودمجه في بنية العمل الروائي دون الإخلال بموازين أي منهما، ودون أن يفقد أحدهما ماهيته وجوهره هو ما يجعل الرواية فنا متميّزًا حقا، لأن لها القدرة على استحضار الخطاب التاريخي وإثارة أسئلة الأحداث الكبرى ومن ثمة استكشاف جوهر الأشياء عبر استحضار واع للوقائع التاريخية، ليس في جو استعراضي خال من المعنى، بل إنها تستعرض أسئلة تتعلق بواقع الإنسان. وكأن الرواية تخول لنفسها الاحتجاج على قرارات جعلت التاريخ يسلك هذا المسلك دون سواه، وكأنها تحاول الإشارة إلى خيارات أخرى كانت ربما قد تنحو به منحنى آخر. ورغم أن الرواية تقتبس من التاريخ إلا أنها ليست مطالبة ولا بأي شكل من الأشكال أن تتطابق معه رغم انبنائها على نفس الوقائع والأحداث التاريخية التي قد نجدها في الوثائق التاريخية فكما يقول أرسطو "إن المؤرخ لا يستطيع أن يخرج عن رواية الأحداث الفعلية من تفاصيل الماضي، أما الأدب فله أن يروي كل ما يمكن أن يحتمل أن يحدث، وبذلك فمجاله أرحب في التعامل مع العموميات، ولأن الأديب غير مقيد بالتتابع الخطي للكتابة التاريخية فإن حبكته قد تتبع وحدات مختلفة"[6]. إذ تتدخل مهارة المبدع وخياله لإضافة تفاصيل لاتوجد في التاريخ، إلا أن المتخيل الروائي أعادها

إلى الواجهة، كما أنه في الوقت الذي يكون فيه التاريخ مطالبا بســـرد الأحداث مراعيا تتابعها الكرونولوجي، فإن الرواية تملك حرية التلاعب بالزمن، والدليل أن أغلب الروايات تعتمد على السرد الاسترجاعي إذ تنطلق من الحاضـــر لتشـــد الرحال إلى الماضـــي، إذ نجد بعض الروايات تتقدم بالسـرد ثم تتراجع وتعيد الكرة مرارًا وتكرارًا وهذا اســتجابة لدوافع إبداعية. كما أن قضــية اختلاف الرواية عن التاريخ يجعلها تســتحضــر مرحلة تاريخية تسلط الضوء عليها وتنقلها للقارئ عبر استرجاع وقائع الشخوص والعالم الذي من حولها، كما تتعدى ذلك لترصد إحساساتها وانفعالاتها، وردات فعلها تُجاه هذه الأحداث وغالبا ما يكون التاريخ مكتوبا من وجهة نظر الغالب لذا فهو يسجل الهزائم والانكسارات التي حلت بالمغلوب كما يسجل الربح والانتصارات التي كانت حظ الغالب من هذا الصــراع، وكل يصــور الأحداث من الزاوية التي تخدمه، مخرجا الحدث عن واقعيته إلى خدمة المصالح حتى تكاد الواقعية التاريخية الفعلية والحقيقية والواقعية تتلاشى وتضمحل في خضم وجهات النظر المتعارضة.

إن ما يتيحه الفن للروائي أكبر مما تتيحه الوثائق التاريخية للمؤرخ، لذا فقد اســـتغل الروائيون حرية الإبداع لينزاح النص الجديد عن الحدث التاريخي، ففي أغلب الأحيان مثلا يضـــفي الروائي على التاريخ عنصر التشويق عبر استحضار القصص العاطفية مثلا، وذلك لزيادة إقبال القراء على قراءة التاريخ في شكل سهل بعيدا عن الجفاف والجمود الذي ينفر القارئ، وهذه الاستعراضات الفنية التي يقدمها الروائي ترجع إلى قدرته الإبداعية، لأنّ تتبع الأحداث بطريقة فنية متاحة للمبدع وعصـــية على المؤرخ، إذ يمتلك الروائي القدرة على الغوص في مكنونات الشخصيات وسبر أغوار دواخلها وأحاسيسها، والحديث عما هو كائن وما ينبغي أن يكون بينما يكتفي التاريخ بتقديم ما هو كائن فقط، فـــ "الأدب أصدق من التاريخ، ذلك أن الأديب عندما يتناول حدثا أو شخصية تاريخية يجد الحرية الكاملة في الانطلاق وراء خبايا الحدث ودوافعه، أو وراء التجربة الخصوصية للشخصية، بينما يقف المؤرخ جامدًا إزاء هذا، ذلك انه ملتزم برواية الحدث كما هو، وحتى في محاولة أعمال فكره فهو لا يســـتطيع أن يلجأ إلى التصـــوّرات الفكرية و إنما هو ملتزم بالمنطق العلمي، أو بطريقة أخرى فإن مجال الخيال مفتوح أمام الكاتب، بينما هو مغلق أمام المؤرخ.... ومن هنا فإذا كانت أدوات الأديب من حيث دراسته الواعية للحقبة والحدث والشخصية التي يؤرخ لها متكاملة، جاء عمله أقرب إلى الصدق منه إلى عمل المؤرخ"[7].

يذهب فريق من الدارسين لوضع حد فاصل وحاجز عالٍ بين الرواية والتاريخ مُقِرًا بالاختلاف التام في طبيعتهما، فالتاريخ مصـــدر للحقيقة والمعرفة، أما الرواية فتقوم على التخييل، كأن الجمع بين التاريخ والرواية ضرب من المستحيل، يقول عمر فروخ "التاريخ معلم للبشرية وليس قصة للتسلية في ليالي الشتاء"[8]. لكن من وجهة نظرنا فالأمر عكس ذلك فالرواية إذ تحتضن التاريخ فهي تقربه إلى القارئ بطريقة سلسة يقول هرنشو جورج "أما رجال الأدب فيذهبون في حوارهم إلى أن التاريخ سواءً أكان علما أو غير علم فهو لا ريب فن من الفنون، وأن العالم بالغا ما بلغ لا يعطينا من التاريخ سوى العظام المعروفة اليابسة، وأنه لا مندوحة عن خيال الشـــاعر، إذا أريد نشـــر تلك العظام وبعث الحياة فيها، فإذا ما أحياها الخيال فهي بحاجة إلى منتهى براعة الكاتب التحرير حتى تبرز في الثوب اللائق بها وتعرض بحيث تصـبح قوة فعالة في عالمنا هذا وهم يقولون

فوق هذا أن ما يتصف به رجل العلم من حياد جاف لا محل له، ولا يمكن أن يُطاق في مقام المؤرخ المعني بشؤون النفوس الحساسة"[9].

3.الحضور التاريخي في الخطاب ما بعد الكولونيالي

إن العمل ما بعد الكولونيالي هو اشتغال على كشف آليات الهيمنة، ومحاولة تسليط الضوء على ديناميات السلطة والإخضاع والمقاومة، وبذلك فهو يتشابك مع التاريخ باعتباره متضمنا لكل هذه الأمور، ذلك أن التاريخ يمثل حلبة صراع يتجلى فيها الطابع السلطوي، فمن منطلق أن التاريخ يكتبه الأقوى ويحاول بكل الإمكانات المتاحة شل كل إمكانية للتفكير بما هو مضاد ومحاولة تعطيل كل استراتيجية أو فاعلية تفكك هذا الصوت وتناقش مقاومات وأسسه بغية نقضها وتقديم البديل الأنسب في محاولة لبناء تراتبات مخالفة. من هذا المنطلق يصبح التاريخ جزءًا مهما من البحث ما بعد الكولونيالي.

تتعدى لغة السلطة ما هو مادي وعسكري واقتصادي لتصل إلى ما هو ثقافي وأدبي وتاريخي، لذلك فإن العمل على الإطاحة بالسلطة يعني استيعاب هذا التشعب لبناء مقاومة سليمة ومناهضة لمثل هذه الأصوليات والإيمان بفكرة فوكو حول ميكروفيزياء السلطة التي يشرح فيها بدقة انتشارها في كل مجالات الحياة ، وقد عمل فوكو على كشف بعض وجوهها وتجلياتها متبعا في ذلك منهجا يقوم على رفض مبدأ التسليم بظواهر الأمور، ولا يقنع إلا بما تكشفه عملية التقصي والتفكيك والتحليل العقلاني لأن هذه الآليات وحدها تضمن الوصول إلى الحقيقة المقموعة والمسكوت عنها في عالم إشكالي غادرته العناية الإلهية على حد تعبير "جورج لوكاتش"، لذلك فإن كتابات المفكر الفرنسي فوكو وآخرين مثل هومي بابا وسبيفاك وإدوارد سعيد تهدف إلى تهديم المسلمات معتمدة آليات التفكيك العقلاني الرصينة، كما أنها تخترق الظاهر والمألوف لتغوص في رحلة البحث فيما هو منسي، وما يقبع في المناطق المظلمة.

لقد عمل فيلسوف الأنطولوجيا التاريخية "ميشال فوكو" في إطار اهتماماته المتنوّعة بالدراسات التاريخية، وتسليط الضوء على مختلف التجارب الثقافية الغربية وتحديدا في كتابه الموسوم بـ "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي" عمل على العودة إلى مرحلة العصر الكلاسيكي ليبين الممارسات اللاأخلاقية والانتهاكات اللاإنسانية التي مارستها أوروبا ضد "اللاعقل" والممثلة في دور الحجز وما ينجر عنها من ممارسة سلطة قانونية وقضائية مستندة إلى معرفة طبية ولكنها تصدر أحكاما لا أخلاقية "فكل ما يهدد العقل بتشابه تافه مع الجنون، يعزل بطريقة عنيفة ويسكت بطريقة صارمة"[10] . وعليه فإن نظرة موضوعية في تاريخ أوروبا تكشف بشكل واضح التجاوزات التي حاولت أوروبا أن تُغطي عليها تاريخيا وعليه فإن هذا العمل يندرج في نظر صاحبه ضمن "إعادة كتابة تاريخ الإقصاء وهو ما يعني القيام بأركيولوجيا الاستلاب"[11].

لا تنحصر الأعمال الإجرامية الأوروبية ضد دول العالم الثالث، بل إن آلة الإرهاب الغربي سُلِطت حتى على فئة من المجتمعات الغربية قُدّر لها أن تكون غير مرغوب بها في أوروبا، وهي التي تنادي بأن شعبها هو الشعب الذي اختارته الآلهة ليقود البشرية جمعاء.

إن المهتمين بتاريخ الفكر والسياسة والأخلاق في أوروبا وغيرها مثل فوكو، دريدا، بورديو...إلخ كانت لهم القدرة أن يبينوا من خلال معطيات وحقائق تاريخية أشكال ومظاهر من العنف والطغيان الذي مارسته

أوروبا ضـد غيرها لا لشـيء إلا لتبيان التفوّق الغربي في مختلف أصـعدة الحياة. يُعد ميشـال فوكو مثالا للمثقف الملتزم الذي آثر التزام الموضـوعية والتخلي عن فكرة الانتماء فقد انطلق في نقده للحياة الغربية المعاصـرة وتناقضـاتها وما اجتاحها من خواء روحي من وعي رافض للاسـتبداد والهيمنة على أنواعها واختلافاتها إذ يقول: " ...أصـبحنا نطالب الغرب، وفي الغرب بأي حق تكون الثقافة الغربية والعلم الغربي والتنظيم الاجتماعي الغربي والعقلانية الغربية شرعية عالمية وليست مجرد سراب و وهم وخداع لسيطرة وهيمنة سياسية"[12]. وعليه فإن التحليل التاريخي للفيلسوف الفرنسي "يعكس إجمالاً نظرة نقدية للتنوير سواءً فيما يتعلق بالعقل أو العلم أو الحرية أو التقدّم، فالعقل التنويري محدود، والعلم منضـبط وغارق في السـياسـة، والحرية محكومة بالهيمنة، والتقدّم ليس خطيا وليس نمطيا وإنما هو تقدّم عكسـي"[13]. لقد وجد كتاب نظرية ما بعد الاسـتعمار في التفكيكية آلية منهجية للبحث عن قيم الاختلاف وتكريس التعددية وإعطاء الأطراف حضـورًا وفاعلية أكثر في الفضـاءات الثقافية، فالمهمة الأولى التي يضـطلع بها التفكيك هو مسـاءلة "المطلقات الماورائية والماهيات المتعالية والكليات المجردة، كالواحد والذات والحقيقة والوجود والعقل وسواها من المقولات التي ينبغي تفكيكها لفتح الخطاب على ما يتناساه. أي على الجسد والهوى والمفرد والخيال والعلاقة، والتفكيك يكشف أن الواحد هو قهر الكل، وأن العام هو استعباد الخاص، وأن المطلق هو إغفال الشرط، وأن الكلي هو طمس الحدث وأن المتعالي هو تأليه للممارسـة والتجربة، باختصـار يكشـف التفكيك أن المقول المنطقي، والكلي العقلي هو سجن للجسد والخيال وختم على الأسماع والأبصار والقلوب"[14].

لا تنطوي إعادة كتابة التاريخ من وجهة نظر المسـتعمر على معاني الإقصـاء أو الانعزالية أو الوقوف في الضفة المعادية والنقيضة، وإنما هي شكل من أشكال إعادة الاعتبار للذات وتاريخها و أصالتها من باب إلزام المسـتعمر بقدر من الالتزام الأخلاقي والإنسـاني والثقافي، وعليه فإن إنجاز هذه المهمة إعادة كتابة التاريخ تعمل بشكل من الأشكال على تسليط الضوء على أشكال من التهميش والازدراء والاحتقار، ومن ثمة الرد عليها بعقلانية ومنطق محكم.

إن الكتابة التاريخية وثيقة الصلة بأمور كثيرة مثل الامبريالية والكولونيالية والصراعات الطبقية والقومية، وعليه فإن البحث فيها يندرج ضمن الدراسات الثقافية ومقارباتها المختلفة، كما أنها تتصل بشكل وثيق بخطاب ما بعد الكولونيالية وعليه فإن إدراج التاريخ في الكتابات الأدبية يسعى بشكل من الأشكال إلى توجيهها نحو بناء مفهوم جديد للعملية الإبداعية، في جعل النصوص تحمل أعباء وهموم الجماعات المهمشة وتساعدها على مواجهة مصـيرها ومحاربة عدوّها وذلك باعتماد فنيات مختلفة دون الإخلال بجمالية النص الإبداعي وخصوصيته الاستيطيقية طبعا. وهذا تقريبا التصوّر ذاته الذي طرحه فوكو حول الخطاب باعتباره مسرحًا من مسارح الصراع من أجل القوة، ومن ثمة يمكن من خلاله الإنصات بعمق لصوت القمع والمقموعين، والقهر والمقهورين، ومن ثمة الاضـطلاع بدور نصـرة قيّم الحرية وصـوت الحق، والدعوة للتواصـل والحوار بين الشعوب والحضارات والأمم.

لقد أخذ أدباء وفنانون على عاتقهم مهمة المعارضـة الثقافية للامبريالية، وكان رهانهم الأبرز كشـف الانحيازات الغربية والممارسـات الامبريالية اللاأخلاقية، وهم مفكرون قادمون من عالم كان بحسـب وصـف

"جوزيف كونراد" من الأمكنة المظلمة في الأرض، ومن جهة أخرى قاموا بإنتاج خطابات لها قوتها وخصوصيتها تقف على أرضية صلبة تقاوم، تتحدى، وتفند خطابات مضادة غربية كانت قد حكمت لنفسها وحكم لها التاريخ بالقوة والسيطرة والموضوعية والحقيقة في حين أن زيفها قد غطى الحقيقة ولم يترك منها إلاّ أطيافا واهية لا تكاد تُرى.

رغم الاختلافات الجغرافية والتاريخية لهؤلاء الكتاب، إلاّ أن رهانهم كان واحدًا، فمثلا برزت من زنوج إفريقيا أقلام أثبتت أن لها القدرة على التحدي والحفاظ على الهوية باعتبارها الأساس الأول لوجود الأفراد والجماعات والقضاء عليهم، هذا الوضع أدركه روائيو العالم الثالث جيدا فتشكلت في أذهانهم صورة واضحة عن هذا الأمر،وقد كانت هذه الصورة الذهنية القابعة في أذهان الأفراد والجماعات هي إفراز لما عاشته الشعوب أثناء الحِقب الاستعمارية التي مرت بها، والواقع الذي فرضته القِوى الاستعمارية التي عملت على التغريب الثقافي وضرب الهويات الدينية واللغوية، وهو ما فُعل بالشعب الجزائري وغيره من شعوب العالم، فأن نقول كلاما نظريا من برج عاجي يختلف كثيرًا عن معايشة الواقع بمأساويته، فالهوية إرث حضاري وثقافي وهي في الوقت ذاته مشكل حضاري إنساني.

إن العمل الذي قام به إدوارد سعيد من خلال أسئلته الذكية أفضى إلى كشف العلاقة الخفية بين الخطابين الكولونيالي والروائي، كاشفًا عن ترابطهما ضمن منظومة فنية وفكرية أفرزت علاقة انصهرت لتشكل منظورًا جديدًا للكتابة الروائية، وهو ما فرض بطبيعة الحال منظورًا جديدًا في قراءة الرواية يستدعي تجديد فهم الرواية والمرجعيات الثقافية التي أفرزتها أو انفتحت عليها لذلك فقد اتضح أن "تبئير القراءة على مستويات التمثيل السردي يكتسي أهمية كبيرة في التعرف على أشكال الصور التي تحملها النصوص الروائية، خاصة وأنها بتأدية دور توسطي يتمثل في إنتاج الدلالات والرموز حول العالم، وما يسكنه من أشياء وكائنات ولهذا ينطوي التمثيل السردي فيها على دلالات ثقافية متعددة تتجاوز حدود الإدراك المباشر لتستوعب دلالات أخرى لا يمكن التوصل إليها عبر الحفر والتفكيك خاصة، وأن الروائي ينطلق فيه من وعي خاص بالزمان والمكان والإنسان"[15].

لقد انفتحت الرواية خصوصًا على قيم ثقافية جعلتها تقوم على استراتيجيات تخييلية من جهة ومن جهة أخرى تحاول أن تُشيد لنفسها أبراجًا تُطلُ من خلالها على رموز وأنساق وخطابات وقيم فكرية تاريخية ثقافية، وهذا ما فرض بطبيعة الحال تصورًا جديدًا لمقاربة الرواية التي اختارت الانفتاح على الدراسات الثقافية، لما تفتحه من آفاق وتقدمه من موضوعات وطرحه من رؤى وتصوّرات لأن المسعى الأساس للدراسات الثقافية كان منفتحا وتعدديا في أساسه، ذلك أن القراءة التي تبلورت في إطارها استندت إلى إستراتيجيات تحليلية ومنظورات تصوّرية تفكر في الخطابات الثقافية بوصفها ممارسات دالة، لا يستقيم الفهم إلا في إطار عمل تفكيكي يضيء أنماط العلاقة بين المعرفة والقوة من جهة والثقافة والهيمنة من جهة ثانية[16] .

إن الأدب الذي كُتِبَ متأثرا بالوضع الامبريالي، ومناقشًا للتاريخ الاستعماري هو أدب ما بعد كولونيالي يطرح ويناقش قضايا الهيمنة والمقاومة، الفعل وردّ الفعل، القوة والقوة المضادة...الخ، كما يبحث في التاريخ المشترك بين المستعمِر والمستعمَر اللذين يشتركان في ذاكرة واحدة هي الذاكرة الاستعمارية. إن العملية

الإقصـائية التي تحاول أن تدفع بالعالم الكولونيالي إلى أقصـى حدود التهميش هي في حد ذاتها دافع لميلاد إبداعات ترمي إلى النهوض بالمسـتعمر وتدعو إلى التعدد واللاتمركز، مسـكونة بلهجة الرفض محاولة بلغة قومية أحيانا وأحيانا كثيرة بلغة المستعمر أن تنخرط فيما يعرف بـ "الكتابة عن الآخر بلغة الآخر".

لقد أثيرت إشـكالية اللغة كثيرا في الأدب ما بعد الكولونيالي أي الكتابة عن الآخر بلغة الآخر وطرحت العديد من التساؤلات في هذا الإطار منها:

- هل الكتابة بلغة الآخر يقصـد من ورائها أن تحقق هذه الكتابات أكبر قدر ممكن من القراءات من أجل الوصـول إلى العالمية كون اللغات المحلية غير مفهومة على المسـتوى العالمي إذ تبقى الكتابة بها رهينة القراءة المحلية ؟.

- أم أن المقصود هو أن يفهم الآخر ما يقال عنه في الأدب ما بعد الكولونيالي ؟.

- هل فقد الكاتب المحلي لغته الأصـلية نتيجة الفعل الاسـتعماري ليجد نفسـه لا يسـتطيع الكلام إلا بلغة الآخر؟.

لقد فرض الواقع الاستعماري على الدول المستعمرة خاصة الإفريقية منها باعتبارها مستعمرات جديدة اليوم أن تعرف ذاتها و تعينها في شـروط لغات أوروبا "بلدانا إفريقية ناطقة بالانجليزية، ناطقة بالفرنسـية، ناطقة بالبرتغالية"[17]. لذا فقد افترض نغوغي واثنغوا في كتابه "تصـفية اسـتعمار العقل" أن "الانجليزية كالفرنسـية والبرتغالية هي اللغة الطبيعية للوساطة الأدبية وحتى السياسية بين الشعب الإفريقي في البلد نفسه، وكذلك بين بلدان إفريقيا والقارات الأخرى وفي بعض الأحيان نُظِرَ إلى هذه اللغات الأوروبية باعتبارها قادرة على توحيد الشـعوب الإفريقية إزاء الميول التقسـيمية الموروثة في تعددية اللغات الإفريقية داخل الدول الجغرافية نفسها" [18].

يحاول الخطاب ما بعد الكولونيالي والأدب ما بعد الكولونيالي أن يكشـف عن المحتوى الامبريالي والتجليات الاسـتعمارية التي تتوارى خلف أصـوات مضـللة تدعو للتمدن والتحضـر، في محاولة لرد الاعتبار للهامش بإلغاء تلك التراتبية الزائفة التي كرّسها الغرب، وإعادة تشكيل هذه الثنائية التي أُنتجت نتيجة رغبة جامحة في التمركز والسيطرة على العالم، وصياغة العلاقات والقوى المتحكمة في البشرية ورسم حدود وملامح هذا العالم، والتحكم في مصـائر البشـر وحياتهم في نوع من الاحتفاء بالذات والاعتداد بالأنا والقول بالتفوق والأفضلية على باقي الأعراق، إن مثل هذه الفرضيات والرؤى إن لم نقل الأوهام التي تسعى المركزية الغربية لتكريسـها بكل الوسـائل هي ما تسـعى دراسـات ما بعد الكولونيالية ومن ورائها الأدب ما بعد الكولونيالي إلى نقدها وتقويضـها، لتضـرب من ورائها الوجود الامبريالي ونواياه الإقصـائية، وتتمرد على كل ما يحاول تبرير الظاهرة الاستعمارية بصيغتها المباشرة وغير المباشرة ورفض كل سلطة تحاول أن تفرض نفسها.

إن إعادة بناء وتشـكيل مكانة الذات وعلاقاتها مع الآخر لا يتم إلاّ عبر اسـتيعاب المكائد المختلفة المستخدمة في خلق التراتبات باستعمال فكر يجادل ويفكك، ويقوض، ويناقش ليحكم بالزيف واللاإنسانية في تطبيق الممارسات والأفكار الغربية المحتكمة لمنطق السيطرة.

يحاول الأدب ما بعد الكولونيالي أن يؤسس عوالم جديدة من خلال فضح الممارسات الغربية ومحاولة تفكيك الخطاب الاستعماري، ويروم بذلك أن يزحزح التراتبية التي صنعها الغرب عساها تخرج عن حدود تلك الصورة النمطية التي كرّسها الغرب عن الذات والآخر، وتكشف عن كل ما يعزز الهيمنة الغربية ويسعى لخلق بؤر الصراع المدعمة للقوة الاستعمارية، والمؤكدة على المركزية الغربية وهامشية الآخر مغذية هذا التوجه برؤى سياسية وإيديولوجية. وتسليط الضوء على كل ما يسهم في بلورة تصور يبرر إرادة السيطرة والتحكم ويسعى لإبراز تعالي الإنسان الغربي وتحيزات الثقافة الغربية بوضع أسئلة حول معطيات الثقافة الغربية والكشف بنظرة نقدية عن حضورها وهيمنتها على العالم غير العربي باعتماد أحكام تُموّقع الآخر ضمن مواقع الدونية وتكشف عن الاستجابة السلبية لمعطيات المركزية الغربية ومكائدها.

يُعد الأدب ما بعد الكولونيالي نتيجة حتمية لمقدمة تمثلت في الظاهرة الكولونيالية التي فرضت واقعا معيشا مرفقا بوضع ثقافي، وحالة فكرية ونفسية معينة. ولأن الأدب ليس بعيدا عن هذا الواقع وهذه التمثلات، والإشكالات، فقد انخرط في التعبير عنها ففي "فترة الهيمنة الأوروبية الامبريالية وأعقابها أنتج سكان المستعمرات أدبا بلغات أجنبية، وتضمن هذا الأدب نصوصا طرحت قضايا الهجنة الثقافية وإشكالية الهوية واتسمت بالتوليف الأدبي، ويثير هذا النوع من الأدب إشكاليات متضمنة في استخدام لغة أجنبية لكتابة أدب عربي أو إفريقي أو كاريبي أو هندي، ويمكن أن تنسب هذه الإشكالية إلى ارتباط اللغة الأجنبية بمرحلة الاستعمار الذي هدد ثقافات المستعمرات وفرض لغات وآدابا أجنبية عليها بالإضافة إلى استمرار معاناة هذه الشعوب من آثار السيطرة الامبريالية في أعقاب الاستعمار"[19].

يتم التعرف على التاريخ من خلال الاستناد إلى مؤلفات تاريخية (كتب وثائق ملفات...) وغالبا ما يكون مفهوم التاريخ القار في أذهان الجميع هو أنه عرض لحوادث في سياق تتابع زمني مع تفسير أسباب وقوع الأحداث في زمانها ومكانها لكن التاريخ في الرواية له وجه آخر لأنه يرتكز على من يقدم الحوادث وكيف يقدمها. وعليه فالقراءة التاريخية ما بعد الكولونيالية هي قراءة مناقضة للتاريخ الرسمي ذلك أن النص الروائي التاريخي يتضمن أساسًا نوايا وتصورات كاتبه الذي يسعى إلى تقديم الحقيقة التاريخية وإنتاجها فنيًا في محاولة لتغيير خطاب مُعيّن، ذلك أن الكاتب قد انتابه شعور بالخوف نتيجة تزايد المد الغربي القائم على اكتساح تواريخ الشعوب الضعيفة من خلال فرض تاريخ واحد وحقيقة واحدة، من خلال آليات عمل مُحكمة تستدعي العديد من التشكيلات الفكرية، وأيًا كان الأمر فإن "الأديب يُعنى فيما يعنى به من مواضيع، بالتاريخ الذي يتجلى في سعي الإنسان إلى تغيير العالم الذي حوله وما ينجم عن هذا السعي من تغيير الإنسان لذاته أيضا، وبذا فإن الأديب يكون عرضة للتأثر بأي تحوّلات قد تطرأ على علاقات الإنتاج في المجتمع ويؤدي بالتالي إلى إعادة تشكيل السلطة وعلاقاتها فيه، وفي هذا مثال واضح على أن السياسة تدخل في صلب هموم الأديب وتُشكّل محورًا أساسيًا من محاور اهتمامه"[20].

4. خاتمة:

توصل البحث إلى جملة من النتائج لعل أهمها ما يأتي:

- يبدو الائتلاف جليّ المعالم واضـح القسـمات بين التاريخ والرواية في اندماج بانورامي له قدرة على محاكاة القضايا الكبرى للإنسانية، بل وإعادة قراءة الأحداث من خلال الوعي النقدي الذي يعيد قراءة ما هو مستشري في الكيان التاريخي والروائي على حد سواء.

- يحضـــر التاريخ في الخطاب ما بعد الكولونيالي بقوة، لأن الظاهرة الكولونيالية والخطاب مابعد كولونيالي هما في الأصل لحظة تاريخية عاشتها الإنسانية بمحمولتها المختلفة .

- تتأسس الرواية والتاريخ في الخطاب ما بعد الكولونيالي كعارضـة ثقافية للإمبريالية والكشف عن انحيازاتها الغربية، والممارسات الداعية لتعزيز فكرتي المركز والهامش، التي تتوارى خلفها أكذوبة التمدن والتحضر.

الهوامش:

[1] -بيتر جران: ما بعد المركزية الاوروبية، تر: عاطف أحمد وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، ط1،القاهرة، 1998،ص20.

[2] -دوغلاس روبنسون: الترجمة والإمبراطورية – نظريات الترجمة ما بعد الكولونيالية، تر: ثائر ديب، دار الفرقد، ط2،سوريا، 2009، ص 92.

[3] -آنيا لومبا: في نظرية الاستعمار و ما بعد الاستعمار الأدبية، تر: عبد الغني غنوم، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، سوريا، 2007، ص 115.

[4] -رنا قباني: أساطير أوروبا عن الشرق – لفق تسد – ، تر: صباح قباني ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط3 ، 1993.ص 19-20.

[5] - ديفيد كارتر: النظرية الأدبية، تر: باسل المسالمة، دار التكوين، ط1، سوريا، 2010، ص 125.

[6] مراد حسن عباس: الأندلس في الرواية العربية و الإسبانية المعاصرة ،دار المعرفة الجامعية، دط، مصر، 2002،ص 105.

[7] -حلمي بدير: دراسات في الرواية و القصة، دار المعارف، دط، مصر، 1985،ص49_503.

[8] -عمر فروخ: الحاجة إلى تجديد تاريخنا وسبل هذا التجديد،الباحث،العدد 15، يناير فبراير،1981،ص17

[9] -جورج هرنشو: علم التاريخ، تر: عبد الحميد عيادي، دار الحداثة ،بيروت،1988 ص09 .

[10] -ميشال فوكو: تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، تر: سعيد بن كراد، المركز الثقافي العربي، دط، بيروت، 2006، ص191.

[11] -المرجع نفسه: ص115.

[12] -المرجع نفسه: ص339.

[13] -الزواوي بغورة: ما بعد الحداثة: موقف الأنطولوجيا التاريخية دراسة نقدية، دار الطليعة،ط1، بيروت ، لبنان، 2005 ، ص151 .

[14] -علي حرب : نقد النص، المركز الثقافي العربي المعاصر، مكتبة الآداب ، ط1، القاهرة، مصر، 2006 ،ص9

[15] -إدريس الخضراوي: الرواية العربية وأسئلة ما بعد الإستعمار، رؤية للنشر والتوزيع، ط1،القاهرة ،2012، ص100 .

[16] -المرجع نفسه: ص12 .

[17] -نغوغي واثنغو تصفية استعمار العقل، تر: سعيد يوسف ،دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ط1،دمشق ، سوريا، 2011 ، ص21 .

[18] -المرجع نفسه : ص25.

[19] -تحية عبد الناصر: اللغة والهوية في منقولة عند باب العمود لياسمين زهران، العدد20 _2000 ،ص103

[20] نغوغي واثنغو: الأديب ي معترك السياسة، تر: محمود البطل، مجلة أ العدد7 ،1987، ص66.